بين الحزب والدولة اللبنانية ـ رئيس التحرير

"لقد نام الشعب عن تعهد شؤون حياته ومصالحه فتعهدها ذو المصلحة في ذله واستعباده وفنائه. وسكت أفراده عن حقوقهم في الدولة وشؤونها فاهتضمتها جماعة تدّعي أنها منه وليست منه... وسكت الشعب فظن ذوو النفع الخاص أنه قانع خانع... وتحولت الجماعة النفعية إلى طبقة حاكمة وأنزل الشعب منزلة الطبقة المحكومة، لا رأي له في حال من أحواله، ولا إرادة له في مصيره، بل الرأي رأي فئة جشعة طامعة، والإرادة إرادة نفر اتفقوا على أن يعيشوا على خرائب الشعب، وأن يتلذذوا بآلامه، فعاثوا في البلاد ما شاءت أهواؤهم، وأرهقوا ما طاب لهم الإرهاق، واسترسلوا في البغي حتى لم يُبقوا ولم يذروا. وظنوا، وبعض الظن إثم، أنهم يوقعون الشعب في معترك الطائفية فيبقى لاهياً عنهم في محاولة كل طائفة احتكار المصلحة العامة ومحاربة الطوائف الأخرى."

(سعاده، من بيان أول مارس سنة 1937 بعد أحداث بكفيا.)

يبدو وضع الحزب السوري القومي الاجتماعي، للمراقب المدقق، نسخة طبق الأصل عن وضع الدولة اللبنانية، بحيث إذا استبدلنا كلمة "الشعب" في العبارة أعلاه، بكلمة "القوميين" أو "الحزب"، لوضحت الصورة وبدا التطابق واضحا. ولعل أصعب ما مر على القوميين في الأيام القليلة الماضية كان تداول صور علم حزبهم مع علم بقية الأحزاب الطائفية والمذهبية التي تنهش قياداتها البلد، أو مشهد فئة من المتظاهرين، ولعلهم كانوا من القوميين، يهتفون أن أحد كبار مسؤولي حزبهم هو "حرامي."

وتتجلى الصعوبة حين يدرك المرء أن الحزب تأسس بسبب نظرة إلى الحياة قوامها العمل لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى. ولشعب ناهض مستعيد لحيويته، متحرر من قيود الطائفية والفساد، في دولة مستقلة ذات سيادة على وطنها وموارده، متحررة من نفوذ الإرادات الأجنبية، وعاملة في سبيل الخير العام في العالم العربي والعالم قاطبة.

أما معظم الأحزاب التي ظهرت أعلامها في الصورة، فقد تأسست لغرض منع الحزب السوري القومي الاجتماعي من تحقيق ما ورد سابقا، والذي هو جوهر نظرته وغايته.

الإشكالية التي يراها القوميون المخلصون هي أنه عوضا من أن يقود حزبهم عملية تغيير جذرية في المجتمع تقضي على العوامل التي تمتص حيوية الأمة، وقع فريسة عملية تغيير جذرية نقلته إلى موقع الفساد الذي تأسس ليقضي عليه، فامتصت حيويته وأصبح في حال من الشرذمة والتبدد تكادان تقضيان عليه.

وكما أن الخروج من أزمة لبنان ليست بالأمر السهل، فإن الخروج من أزمة الحزب ليس سهلا كذلك. والسبب في الحالتين هو الخوف من الفراغ، وقوة الفساد واستعداد عدد لا بأس به من الناس للدفاع عنه، والعوامل الخارجية المؤثرة. لنبدأ من تلك الأخيرة.

نحن لا نصدق لحظة أن "المانحين" للدولة اللبنانية يريدون منها إصلاح النظام. أبدا. إن هذا النظام اللبناني هو وليد الإرادات الأجنبية وربيبها ولا مصلحة لها في تغييره أو تغيير رموزه. هذه الإرادات الأجنبية لا تمنح شيئا. إنها تقرض لبنان – تحت ستار إعادة إعماره – مليارات الدولارات، مدركة أن هذه المليارات سوف تتقاسمها عصابات الطوائف دون أن يذهب قرش منها إلى الشعب. وهي تقرض هذه الأموال مدركة أن الشعب اللبناني سوف يدفعها من عرقه وعرق أبنائه إلى أحفاد أحفاده. لا، لا مصلحة أبدا لهذه الإرادات في التغيير في لبنان بل نحن نراها تدافع عن النظام، وسوف تستشرس أكثر كلما ازدادت وطأة ضغط الشارع.

كذلك لا نصدق لحظة أن القوى التي تدعم قيادات الحزب اليوم تدعمه محبة به أو بمبادئه أو نظرته، أو أنها مستعدة لدعم أي حراك يواجه التنظيمات التي تحمل اسم الحزب. إنها تستخدمه لمصالحها، كما تراها هي، عبر قيادة يتحكم بها من تعينه هذه القوى ممرا إلزاميا لمساعدات مالية، يستفيد هو وحاشيته من معظمها، ويبقى للحزب ما يكفي لبقائه في غرفة العناية الفائقة. إن هذه القوى لا تريد الحزب موحدا قويا. إنها تريده شراذم وتنظيمات ورؤساء يخدمون مصالحها.

عوضا من أن يقود الحزب عملية تغيير جذرية في المجتمع تقضي على العوامل التي تمتص حيوية الأمة، ورفع فريسة عملية تغيير جذرية نقلته إلى موقع الفساد الذي تأسس لرفضي عليه

إن قوة الفساد هي استعباده لآلاف المواطنين في لقمة عيشهم، وتحريكهم، ساعة يشاء لحماية مكتسباته. إنهم كأولاء الجنوبيون من أبناء شعبنا تحت الاحتلال الإسرائيلي، لا يجدون عملا لهم سوى بناء المنازل لمستعمرين جدد على الأرض، أرضهم، التي نهبها منهم المحتل بالقوة.

أما الفراغ، فالخوف منه قتّال أيضا. الفراغ في المؤسسات ربما يقود إلى الحروب الداخلية يقول لك أرباب الدولة اللبنانية، وكذلك أرباب الحزب. المفارقة ان الحروب في لبنان كانت دائما في ظل الدولة، والتصفيات داخل الحزب تمت إبان وجود "المؤسسات". لا ليس الفراغ ما يخيف، بل التهويل به هو الذي يخيف.

وبعد، إنه لأمر جيد أن المتظاهرين ما زالوا في الطرقات. لا يجب ان يكون هناك عودة قبل تحقيق أول المطالب: إلقاء القبض على كبار المافيا وجلبهم أمام القضاء لاسترداد الأموال المسروقة منهم. هذا ليس سهلا، وهؤلاء أقوياء ولديهم أزلامهم. ولكن ما قبل نزول الناس إلى الشارع لا يجب ان يكون كما بعده.

كذلك الأمر في الحزب. لقد اسقطت المظاهرات آخر أوراق التين وكشفت عن المسافة بين القوميين وقيادتهم، خاصة في مركز الروشة. القوميون في الشارع، أما قيادتهم فمؤيدة للنظام ومدافعة عنه. وما زال هناك من يقول، "ثمة انتخابات قادمة دعوها تحسم النقاش." إن القائلين بمثل هذا القول مثلهم مثل الذي يدعو اللبنانيين اليوم للانتخاب وفق القانون الانتخابي القائم وتوقع نتائج مغايرة عما هو حاصل اليوم.

لقد استيقظ الشعب في لبنان. هل يستيقظ الشعب في الحزب؟ هذا هو السؤال.